مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلـد 6 العـدد 1 / جوان 2020
ص ص: 5-20

اعترافات النقاد الغربيين و العرب المعاصرين بأزمة النقد التفكيكي

Confessions of Contemporary Western and Arab Critics of the Deconstructive Criticism Crisis

راجــح سامــية

RAJAH Samia

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، samia.radjah@univ-biskra.dz

الاستلام:2020/02/16 القبول:2020/05/01 النشر:2020/06/30

ملخص :

يقف القارئ في هذه الدراسة النقدية عند أهم الاشكالات النظرية و الإجرائية التي عجت بها استراتيجية النقد التفكيكي، و يتضح ذلك من خلال تسليط الأضواء على مجمل الإعترافات المنددة و المعارضة للتفكيك، و قد جرى التركيز على أعلام نقدية متميزة منها ما اسهم في التأسيس لهذه الاستراتيجية النقدية الجديدة ؛ أعنى استراتيجية التفكيك ، ومن تلك الأعلام الغربية النقدية نذكر : جاك دريدا وخوسية ماريا بوثويلوا إيفانكوس وليتش وهوارد فليرن وجون إيليس وليونارد جاكسون وبول ديمان وج. لوبران وفدينيس دونويه وموري كريجر. ومن النقاد العرب المعاصرين المنددين بالنقد التفكيكي نذكر: ادوارد سعيد و شجاع مسلم و بسام قطوس و عبد العزيز بن عرفة و عبد العزيز حمودة و عبد الحميد إبراهيم .

وأحب أن أشير في هذا السياق أن هذه الدراسة ليست مجرد عرض أو سرد ممل لتلك الإنتقادات ، فقد عملنا على شرحها و توصيفها و التعليق عليها تعليقا نقديا ، استهدفنا من خلاله تقديم صورة مستقبلية لعالم النقد التفكيكي وذلك من خلال تقديم بعض الاقتراحات النقدية الجديدة التي من شأنها ترميم صندوق النقد التفكيكي بنتوءاته النظرية وآفاقه الاجرائية الواعدة.

الكلمات المفتاحية: التفكيك، الإختلاف، الكتابة، لا نهائية الدلالة

المؤلف المرسل: راجــح سامــية، **الايميل:** samia.radjah@univ-biskra.dz

Abstract:

The reader stands in this critical study at the most important theoretical and procedural problems that were riddled with the strategy of deconstructive criticism, and this is illustrated by shedding light on the total condemnations and oppositions to the dismantling, and the focus has been on distinguished critical flags, including what contributed to the establishment of this critical strategy The new; I mean the dismantling strategy, and among those critical Western flags we mention: Jacques Derrida, Jose Maria Bothwellwa Evancus, Leach, Howard Flearn, John Ellis, Leonard Jackson, Paul Deman and J. Lubran, Vedence Dunoye, and Maury Krieger. Among the contemporary Arab critics denouncing deconstructive criticism, we mention: Edward Said, Shuja Muslim, Bassam Qattoos, Abdel Aziz Ibn Arafa, Abdel Aziz Hamouda and Abdel Hamid Ibrahim.

I would like to point out in this context that this study is not merely a tedious presentation or narration of these criticisms. We have worked on explaining it, describing it, and commenting on it critically, through which we aimed to present a future picture of the world of deconstructive criticism by presenting some new critical suggestions that would Restoration of the think tank, with its theoretical spurs and promising procedural perspectives.

Keywords: Dismantling, divergence, writing, infinite significance.

المقدمة:

التفكيكية مثلها مثل أية موضة نقدية سابقة ، لمعت مقولاتها وأفكارها في سماء النقد الفسيحة حتى انبهر بها المتلقي أو المستهلك، لكنها سرعان ما وضعت على سندان النقد لتنهال عليها مطارق النقاد بالانتقادات اللاذعة حين كثر حولها القيل والقال، فانتهى ذلك الأمر بمجموعة من النقائص والسلبيات، ومن ثمة أصبحت اقل شهرة حيث بدأت في التراجع رويدا رويدا في انتظار بزوغ فجر نقدي جديد، وأحب هنا أن أشير إلى أن التفكيكية قد وقعت في مزالق خطيرة سواء على المستوى النظري أو الإجرائي ، وهذا ما نلحظه في تصريحات النقاد الغربيين والعرب المعاصرين أنفسهم لا سيما المؤسسين لاستراتيجية التفكيك.

1- إشكالات التفكيك عند النقاد الغربيين:

تأتي انتقادات جاك دريدا لاستراتيجية التفكيك في طليعة الانتقادات جميعا، فهو الذي أقر بمبدأ اللعب الحر للعلامة من حيث هو مصطلح ومفهوم، جاءت به الفلسفة

الظاهراتية لأدموند هوسرل، والذي يتيح لها انفتاحا وانعتاقا كبيرين على معاني لا حصر لها، وهذا ما عبر عنه دريدا بتعدد القراءات وهو التعدد الذي وصفه في نهاية المطاف بأنه عرضة للتفكيك، حين وصف مجمل قراءاته –لأي نص كان– أنها إساءة قراءة. يضاف إلى ذلك أن التفكيكية –في تصور دريدا – تفتقد إلى معايير الضبط المنهجي، لأنها سرعان ما تعلن غياب ملامحها –على المستوى الإجرائي– في غمرة المناهج النقدية الأخرى، وهو الشيء الذي جعلها تنأى عن إضفاء صفة الموصوف المنهجي عليها، ولذلك نجد دريدا يقول :"ليس التفكيك منهجا ولا يمكن تحويله إلى منهج، خصوصا إذا ما أكدنا في هذه المفردة على الدلالة الإجرائية أو التقنية" [1]، بل إن جاك دريدا ينفي أن تكون التفكيكية نقدا أو تحليلا :" إن التفكيك (...) ليس بأي حال ورغم المظاهر ليس تحليلا، Analyse ولا نقدا Critique..." [2]، وإن كان جاك دريدا في هذا الرأي ينفي صفة النقد والتحليل عن التفكيك فما ذلك سوى دعوة منه لإبطال مفعول النقد أو الدراسة النقدية لحيادهما عن معايير الضبط المنهجي ، ولأن النقد مرة أخرى لا يمكن أن يكون نقدا إلا إذا امتثل إلى مقولات المنهج ومبادئه الصارمة، امتثالا يضفي من دون شك صفة الموصوف المنهجي على استراتيجية التفكيك.

إن أهم مشكلة اعترضت طريق التفكيك هي مشكلة التسمية ، أو الإصطلاح، وقد تجلى ذلك في أطروحات النقاد بين مؤيد ومعارض، وإن كان دريدا قد اعترض على إضفاء صفة الموصوف المنهجي على التفكيك، فإن خوسيه ماريا بوثويلوا إيفانكوس، قد اعترض هو الآخر على إضفاء مصطلح النظرية على استراتيجية التفكيك[3]، حيث جعله يدور في فلك النقد كإتجاه جديد أو طريقة قرائية جديدة، تعتمد على فكرة الهدم التي جاء بها مارتن هيدجر من أجل البناء الجديد، وفق مبدأ المطاردة واللعب الحر ، ولكن ألا يعني ذلك بأن لغة النص قد أصبحت ذات طابع مراوغ ، يجعل القارئ في ضياع وتشتت وسط دوامة المدلولات اللانهائية الشيء الذي قد يجعله يصرف النظر عن القراءة تماما.

يجب التأكيد هنا على أن نقاد التفكيك، قد فهموا التفكيك من زوايا متعددة تدور كلها في دائرة التقويض والهدم، لكنها في الوقت نفسه تتعدد لتدل على التشريح والتقويض، والتدمير، والنسف والتفتيت والتشتت. الشيء الذي يدل على أن كل ناقد قد يتعامل مع التفكيك حسب ما يراه هو ، وليس كما يجب أن ينظر إليه؛ معنى ذلك أنه لا

توجد قواعد وأسس واضحة ومحددة، يعتمدها الدارس أو ينتهجها أثناء الدراسة ليقيم مقاربة تفكيكية ، ومن خلال تتبعنا للملامح النظرية للتفكيك، فقد ألفيناها بين مؤيد ومعارض، والنقد فيها أكثر من التأييد لها، الشيء الذي يؤكد بأن التفكيك على الرغم من مقولاته وأفكاره حول تحصيل المعنى، والوقوف عليه فإنه يظل ينأى عن المنهجية أو النظرية التي تفرض نفسها فرضا قويا على النقد والنقاد، والحقيقة أن مشكلة تعدد المصطلح أو المفهوم مشكلة لصيقة بأغلب الاتجاهات الاحترافية في مرحلتها النصانية.

ويؤخذ على النقد التفكيكي مآخذ كثيرة تزيد على تلك التي أخذت على غيره ، وهذا ما صرح به ليتش (LYTCH) في قوله :"إن التفكيكية باعتبارها صيغة لنظرية النص تخرب كل شيء في التقاليد تقريبا ، وتشكك في الأفكار الموروثة عن العلامة واللغة والنص، والسياق والمؤلف والقارئ ودور التاريخ وعملية التفسير ، وأشكال الكتابة النقدية" [4]، ويؤكد هاوارد فليرن (Haward Vlyrn) أن التفكيكيين هم السبب الوحيد لأزمة الدراسات النقدية، فهم يتصورون المؤسسة الأدبية ، وقد تحولت إلى كرنفال تختفي فيه التقسيمات والحدود التي تميز بين الشيء وغيره إلى درجة يسود فيها الخلط ويمنح الطلبة درجة عالية مقابل السخرية التي يتقنونها مع جهلهم بأكثر الأشياء بداهة[5]. ويشبه ليتش الناقد هيليز ميلر (Mylz Miler) كثور هائج وسط متجر لبيع الخزف فهو يدمر كل شيء[6]. والنقد التفكيكي يقوم على مواقف استعراضية أو استفزازية، تصادف هوى من جانب المثقف الأمريكي صاحب الميزاج الذاتي الخاص، أكثر مما يقوم على مرتكزات نظرية يسهل تلقفها وتطبيقها مثلما كان الأمر في النقد الجديد، ويرى آخرون أن التفكيك يشبه الموضة التي تظهر في الوقت المناسب ،لإشباع حاجة مرتبطة بالذكاء التسويقي ليس غير، ومما ساعد رواج هذا التفكيك إجادة دعاته لفنون البيع والتغليف التي تمكنه من بيع بضاعة قديمة، سبق تداولها في أشكال جديدة، براقة [7].

وقد الف جون إيلس (Jhon Illis) كتابا ضمنه الكثير مما يؤخذ على التفكيكية وهو كتاب ضد التفكيك Against deconstruction 1989 وفيه يثبت أن معظم التعبيرات والمقولات الأساسية للتيار التفكيكي كانت متداولة عند النقاد الجدد، ومن ذلك مقولة إحالة المعنى التي ظهرت عند دريدا بتعبير مختلف آخر ، هو ميتافيزيقا الحضور. أما إنكار دريدا لثبوت المعنى في القراءة الأولى للنص فذلك تحوير لمقولة

المغالطة القصدية Intentional fallacy التي تكلم عليها ويم زات، وبير دسلي منذ عام 1954 ، وأخذ على التفكيكية أيضا شغفها باستخدام كلمات واصطلاحات غير واضحة، سعيا منها لإبهار القارئ وإقناعه بأن ما يقال له استثنائي وغير عادي، علاوة على أنها إعادة لبعض المقولات الفلسفية المعاصرة ، ولا سيما الظاهراتية، وفلسفة التأويل تحكمها بالدرس الأدبي، وهو شيء لطالما سعى النقد عموما والبنيوية خاصة للتحرر منه.

وإذا كان نيتشه قبل مئة سنة قد أعلن موت الإله فبالمنطق نفسه أعلن دعاة التفكيك موت المؤلف "وكان هذا الإعلان بمثابة كشف عن وحدة الإنسان لأن القول بموت الله يعدل القول بأن الإنسان وحيد في العالم. غير أن توكيد (Nietche) نيتشه يذهب إلى أبعد من ذلك، هو وجود ما هو مغاير في شكل كان، إذن فقتل الله لا يكفي لإنجاز عملية تغيير القيم، وإنما يمس النفي أيضا جميع القيم المسماة بالعليا أي مجمل الأسباب التي أعطاها الإنسان لنفسه، لا منذ أيام المسيح فحسب ، بل منذ ايام سقراط.إن نفي الحياة باسم القيم العليا ، سواء أكانت إلهية أم بشرية يجعل من الحياة قوة قائمة نافية، ونيتشه يعلمنا أن نرفض هذا النفي كما نستعيد وحدة هوية الفكر والحياة [8]، حياة هي محض إيجاب وخلق، وهذا ما أغفلته التفكيكية حينما ضحت بدور الذات والإرادة الإنسانية في عملية الخلق، وقد جاء ذلك في سياق أسطوري هو موت المؤلف، فالأغلوطة التي وقع فيها دعاة التفكيك مصدرها نيتشوي بحت، ويبقى الإنسان الأعلى هو الإنسان هذا المركز الشخصي لجميع أفعال الفكر ولجميع المبادرات التي ينبني بموجبها التاريخ الإنساني.

هذا وقد تمحورت انتقادات (Leounard Jackson) ليونارد جاكسون لدريدا في محورين رئيسيين، أولهما هو ما يزعمه (Drida) دريدا من وجود ما يدعوه بمركز الصوت، حيث يرى (Leounard Jackson) ليونارد جاكسون أنها غير موجودة. وثانيهما: هو الأولوية الكينونية الأنطولوجية لما يدعوه بالكتابة أو الكتابة الأصلية حيث يرى ليونارد أن هذه الفكرة بعيدة عن التماسك وضعيفة ، وعلى مستوى أعلى ، يشير ليونارد إلى الطابع الفلسفي لعمل دريدا، بأنه طابع ميتافيزيقي واضح، فالطابع العام للنقد التفكيكي لا يرشحه لأن يكون المنهج التحليلي اليقظ الصارم حيال صورته هو ذاته، وإنما هو شكل من المثالية النصية "وبعبارة أدق شكل من الصوفية النصية الرومانسية"[9].

وناقد آخر من منظري التفكيك هو (Diman) بول ديمان طالما حث على تعدد المعنى، بل ذهب إلى أن ثبات المعنى أمر مستحيل نجده ينتقد التفكيك في سياق حديثه عن البلاغة، حيث تمحورت مناقشاته حول ضرورة تخليص البلاغة من غرام التفكيكية إذ يصفها بأنها "حالة من عدم الثقة" يقول :"إنها ليست حقيقية كما أنها ليست خادعة إنها مشابهة للفرضية الضنية الثابتة" [10]. وتبقى التفكيكية سابحة في يم لا نهائي من الشكوكية حتى تجري مناقشة نتائجها بصيغ إقناعية.

وقد تركزت المناقشات المعارضة للتفكيكية في معظمها على البداهة أو اللغة الاعتيادية، وقد لعب الفيلسوف لود فيج ويتجنسون (1889- 1951) دورا كبيرا في دعمها من منطلق أن مثل هذه الفلسفات اللغوية التشكيكية تستند في جذورها على نظرية معرفية، مموهة تدفع المرء للبحث عن تطابق منطقي بين اللغة والعالم، وبدأ ويتجنسون نفسه منطلقا من هذا الفهم غير أنه وصل إلى الإيمان بأن للغة استخدامات متعددة، وقواعد نحو منطقية لا يمكن ابتسار أي منها لتصبح مفاهيم شرح منطقية، وفلسفة "لودفيج ويتجنسون" في اللغة تشتمل صراحة على موقف معادي للاستخدامات التفكيكية، فإذا كانت طريقتنا في الحديث عن العالم مسألة اصطلاحات ضمنية ، فإن الشكوكية ببساطة تقف بجانب هذا الرأي ، والشك في منح الثقة ناجم عن معرفة زائدة ومن وجهة نظر ويتجنسون فهناك خطأ فكري مستمر في النظرية النصية ما بعد السوسيرية، التي توجد ظاهرة مروعة للفصل بين الدال والمدلول [11].

هذا الرأي لويتجنسون وأتباعه هو جذر جميع الفلسفات الشكوكية، حيث دفعت هذه الفلسفات إلى الإرتباك والتناقض الظاهر بعدم الأخذ بعين الاعتبار، تنوع احتمالات المواءمة بين اللغة، المنطق، والواقع، ويبدو أن المناقشة لا تقدم بديلا تام الارتباط مع النظريات النصية لما بعد البنيوية. والواقع أن الاعتراض عن اللغة الاعتيادية بدوافعها الضمنية واصطلاحاتها تبدو طريقا معقولا، للوصول إلى اصطلاحات ذات طبيعة تحكمية، وهذه الطبيعة كان دريدا قد رفضها تحت مضلة اللعب الحر بالكلمات. معنى هذا أن اللغة أصبحت مراوغة وتحولت مطاردة المدلولات إلى دوامة أو بالأحرى متاهة وغياب المركز الثابت في تعدي الدلالة إلى مراكز لا نهائية وكل في فوضى سابحون (النص والقارئ).

ويعترض ج لوبران (J-LOBRAN) في كتابه صبر المفاهيم عن دريدا قائلا:"أليس منحى دريدا يعني أننا فقدنا حاسة الإصغاء، ولم يعد لنا دور إلا الإنكباب على النصوص" [12] ويرد عبد العزيز بن عرفة عن نقد لوبران قائلا :"لا بد من القول أن القراءة التي تعتمد إلى الاختلاف المرجأ لا تنفي حاسة الإصغاء إنما تدعو إلى التضامن بينهما إنما تدعو إلى تهذيب حاسة الإصغاء وصقلها "[13]، ويتفق هنري مشنيك في سؤاله مع ليتش في كون منهجية التفكيك "تذهب ضجة الغرابة التي تمارسها عليها ما يمكن أن نسميه (الموت) (النفي) (و الخواء) وذلك طبقا لفعل هروبي، تحييدي، لا يفتأ يلتذ دائما بارتداده إلى أرض الميتافيزيقا زاعما الابتعاد عنها، وكل ما في الأمر أنه لا يفتأ يحن إليها .." [14].

ومن دون تعاطف مع التفكيكية ، فإن النقـــاد قد لاحظوا ثراءها وشعروا بالحاجة لمناقشة قضاياها بدقة، فدينيس دونويه (Fidinis Donoy) اتفق مع آراء دريدا في كتابه "الشبـــح المهيمـــن 1976" رغم اختلافه معه في قضايا أخرى، أما موري كريجر (Mory Kriger) والذي يعتبر نفسه القيّم على آراء النقد الجديد القديم، فقد تحدى دريدا في موضوع أن الشعر يشارك في مناحي الحياة، للحضور الذي يروّغ عن حيل النصية [15].

ولا عجب أن التفكيكية قد واجهت هذه الأعاصير النقدية اللاذعة ، فذلك أمر طبيعي ، لأن التفكيكية كانت بمثابة القاعدة التي أسست لنفسها معالم نقدية معارضة لمختلف التيارات النقدية الأخرى، وإن تشابهت مع بعض مبادئها، ويجب أن نعترف أن التفكيك قد أنجب مفاهيم نقدية ملونة بالاجترار تارة وبالجدة تارة أخرى، وهذه المفاهيم خدمت كل من النص والقارئ، وإن كانت التفكيكية محصلة لمناهج أخرى فليس من اليسير ربط خيوط متواشجة ومنتمية إلى زمر نقدية متباينة في نظرية نقدية واحدة تدعي أنها متماسكة. ولا يخفى علينا أن التفكيكية قد أرست هيمنة جديدة للمناقشات الدائرة منذ زمن طويل بين الأدب والفلسفة، ولم تكن دعاوي التحليل مطروحة من قبل البلاغيين المبتدئين، ولم يكن النقد من قبل قد امتلك مثل هذه الشجاعة والعقلانية والنمطية، وهذا ما يشفع للتفكيك ويجعله إيجابيا برغم تلك الانتقادات التي وجهت له من النقاد الغربيين.

والواقع أن أزمة النقد التفكيكي ، ليست أزمة بحث عن آليات جديدة، ولا هي أيضا مسألة نسف التقاليد النقدية التي تطاول عليها العمر، إذ إن الأزمة في تقديرنا هي

أزمة إبحار في الذاكرة الإبداعية، إبحار لا بد له من أشرعة تتذوق معاني الجمال وتتحسس مواطنه. وإذا ما أمعنا النظر في خارطة التفكيك ، فإننا نجد سلامة هذه الخارطة مقارنة بالاتجاهات النقدية الأخرى، والسر في ذلك يعود إلى الاقتراب في التصور بين آليات التفكيك والتصورات التي تعج بها النظرية الشعرية ، والتي هي حصيلة لمختلف الماهيات الجزئية كما طرحها الشعراء النقاد المعاصرون والحداثيون في تنظيرهم للكون الشعري.

2- إشكالات التفكيك عند النقاد العرب:

لقد لقيت التفكيكية ضربات عنيفة من لدن النقاد العرب المعاصرين، ويتجلى ذلك في تحفظهم وامتعاضهم من استراتيجية التفكيك، التي تحولت في نظر بعضهم إلى مرثية من مراثي النص الأدبي ، وقراءة من قراءات السلام على جثمان الجمال، والتفكيكية في روايتها عن موت المؤلف تكون بهذا الدأب قد اغتالت المعنى الإنساني للنص الأدبي ومن ثمة الإنسان، فقد غدت أطروحات دريدا تأبينا للذات ومرثية للإنسان، وقد سجل إدوارد سعيد امتعاضه في مقول قوله :"إن الإنسان عند فوكو لم يعد ذاتا متماسكة وإنما قد أذيب متحولا في النهاية ليس إلى أكثر من فاعل، إلى ضمير المتكلم اللغوي، ولا يمكن تحديد ثبوته في سبيل الخطاب الجاري الأبدي" [16]،إنه الدحر الكلي لإملاءات الذات الإنسانية وتحاشيها من أن تكون ذاتا فاعلة، وخالقة لأعمالها الإبداعية، وفي هذا السياق تبدأ التفكيكية في التقوقع انطلاقا من هذا العبث المريع الذي منيت به على يد إدوارد سعيد ونقاد آخرين ستكشف عنهم محطات لاحقة من فقرات هذا المبحث.

وإذا كانت القراءة التفكيكية هي محاولة من القارئ لاستبطان مدلولات الدوال في بنيتها اللامتجانسة، ومن ثمة إطلاق العنان للعب الحر للكلمات ، فإن هذه القراءة لم ترض بال شجاع مسلم وبسام قطوس :"إن القراءة التفكيكية ، وإن كانت آلياتها وإجراءاتها وأجهزتها الإصطلاحية والمفهومية واحدة، إلا أنها سيف ذو حدين، إذ يمكن لهذه القراءة أن تفضي إلى نتائج ليست مختلفة فحسب، بل ومتناقضة أيضا" [17]. الشيء الذي يضع القارئ في حالة حيرة وشك دائم، وبحث متواصل عن الحقيقة، إنها ترهقه في بحث لا جدوى منه ولا طائل من ورائه، سوى تعدد المعاني التي لا تحصى، فيشعر بحالة من الملل والضياع ويتكون لديه الشك حول الكتابات، خصوصا وأن القراءة التفكيكية في عرف دريدا هي قتل لكل قراءة سابقة ومحي لكل معنى ناتج، إنها

"لا قراءة، أو إساءة Miseading ، وكأنه يدعو إلى نقض النص نفسه وإلغاء سلطته، مهما يكن غنيا أو قابلا لتأويلات شتى وقراءات كثيرة، ومثلما أن النص لا يسلّم نفسه بسهولة، لما يكتنزه في داخله من إيحاء ورمز ولمح وتصوير، لا يظهره إلا القارئ العارف لقوانين اللعبة الفنية، كذلك فالنص مغاير لأي تفسير" [18]، وبالتالي فإن هذه الإتجاهات النقدية الإحترافية ، وفي مقدمتها التفكيكية قد تجاهلت في بواكير تأسيسها طاقة النص، وقدرته الإيحائية القوية، الهائلة، وحجم تأويلاته البعيدة ، إنه أكبر من أي منهج أو نظرية تشتغل لكشف مكامنه الدفينة، ولآلئه الجمالية العميقة، ومهما تعددت قراءات النص فإنه يزداد اتساعا واستعصاء وهروبا أمام فؤون النقاد، لأن أية قراءة هي مطاردة محكوم عليها بالفشل سلفا ما دام النص قد امتلك طاقية الإخفاء، وارتدى مظلة اللامحدود.

هذا وقد تساءل عبد العزيز بن عرفة عن دعوة دريدا إلى التفكيك، وعن أفكاره التفكيكية والتي تؤدي في زعمه إلى الضياع، والتشتت في بحـــر من الدلالات اللانهائية:"إلى أي مدى لا تقيم منهجية دريدا هي الأخرى اعتبار الخطر الذي تقبل عليه دون ضمانات؟ إلى أي حد تقبل منهجية دريدا شكلا من أشكال السيطرة ، خصوصا عندما تقول بأن :"الوهم أشد رسوخا من الحقيقة، بل إنه متجذر فيها بالدرجة التي يصبح متطابقا معها، ومطابقا لها تماما" [19] ، إن هذه الانتقادات الموجهة من عبد العزيز بن عرفة، صوب استراتيجية التفكيك لدى دريدا، اقتصرت على جانب ضياع المعنى وتشتته، وقد يكون ذلك راجعا إلى فكرة اللعب الحر وانفتاح الخطاب عن المدلولات اللانهائية ، وقد اتفق عبد العزيز بن عرفة مع هنري مشنيك (HENRY MECHNIK) في نظرته لمنهجية دريدا، ونظرته للتفكيك، حيث لاحظا أنها تنم على نظرة تقديسية لمبدأ التعددية، ومبدأ النفي تقديس لكل ما هو مستحيل، وفق فعل الهروب من الواقع، وفعل تحييدي مرتد، إلى أرض الميتافيزيقا ، ويزعم الابتعاد عنها، في حين أنه لا يتوقف عن الحنين والشوق إليها :"إن الاستراتيجية التي توخاها دريدا ، والتي تكرس همها الأساسي على التعدد والتفتت المتناهي في الذرات وهي منهجية تذهب ضحية الغواية التي تمارسها عليها ما يمكن أن نسميه الموت والنفي والخواء" [20].

ورغم كل ذلك فإن دريدا كان يقر دائما بأن سوء فهم التفكيك هو ما يجعله عرضة للنقد والمعارضة والرفض، وما دامت استراتيجية التفكيك قد أقامت سرحا ضد تيارات فكرية ونقدية وفلسفية مختلفة ، فلا عجب من أن تتعرض إلى مثل هذه الطيوف النقدية. وإذا كانت التفكيكية قد حاولت التأسيس لاستراتيجية نقدية جديدة مفعمة ببعض البدائل اللسانية والنقدية والفلسفية الصارمة، إلا أنها لم تنج من الوقوع في شرك الأزمة، وهذا ما يجليه عبد العزيز حمودة الذي يرى "أن موقف التفكيك المفسر يعمد إلى صياغة ميلودرامية المبالغ فيها لأفكار ليس فيها جديد، (...) إن النظرة الفاحصة لاستراتيجية التفكيك في ضوء تقاليد الحركة النقدية في الخمسين عاما السابقة على ظهورها تؤكد أن أكبر إنجازاتهم هي إيجاد فنون التغليف والتسويق (...) والأدهى من ذلك أنهم ينطلقون من موقف فلسفي ونقدي ينادي بنسف التقاليد (...) وينجحون في أحيان كثيرة في تحقيق ذلك، لكنهم لا يقدمون البدائل الجديدة الحقيقية (...) وإن كانت تعلق في سيغات براقة وميلودرامية تحقق لها بعض البريق المؤقت إلى أن تكشف حقيقتها"[21] .

وإذا كان التفكيك نسفا للتقاليد فهذا أمر فيه نظر باعتبار أن هيدجر قد تراجع في نسفه للتقاليد[22]، ليجعل القيم منها جاريا في اللغة، وإن كان قد أجاد في ابعاد التقاليد التي تعد تشويها لبلازمية اللغة، فإنه لن يسمح بتعايش يمكن أن يذيب الاثنين في كيان واحد، ومن ثم تصبح اللغة تقاليد إضافية. وتبقى مقولات التفكيكية مقولات فيها من الجدة ما فيها من القدم، فالكثير من المبادئ التي نادى بها التفكيك كموت المؤلف، وإنفتاح النص والاختلاف ...إلخ هي مقولات عرفتها الاتجاهات النقدية ما قبل التفكيك غير أن التفكيكية قد جعلت هذه المقولات والمبادئ ترتدي حلة نقدية جديدة، ظهر فيها النص الأدبي، وتحول معها إلى حرباء جمالية جديدة سرعان ما ترتدي لونا وسرعان ما تلبث إلى أن تعود مرة أخرى إلى لونها العتيق البالي.

وإذا كان بارت كما يقولون قد توحد بالنص وأصبح عشقه الأول والأخير ، فإن الغذامي قد توحد ببارت وأصبح همه الأول والأخير، فهو يكرر اسمه في ثنايا كتابه "الخطيئة والتكفير" نحو 45 مرة، وهو يقدمه بحديث الولهان ، وكأننا إزاء فارس من فرسان العصور الوسطى فيقول تحت عنوان "فارس النص" ، "لم يحظ أحد بالتربع فوق سنام نظريات النقد مثلما حظي رولان بارث الذي قاد طلائع النقد الأدبي لمدة ربع قرن وما تزحزح عن الصدارة قط" [23] ، وإن كان رولان بارث قد حظي بهذا السمو لدى

الغذامي فإن عبد الحميد إبراهيم يأخذ طريقه في الطعن في مختلف الإجراءات التشريحية التي عرضها الغذامي في كتابه الخطيئة والتكفير :"فالغذامي منذ الصفحات الأولى يتبنى منهجا يزعم أنه يتجاهل كل الإسقاطات التي هي خارج البنية الشكلية للنص الأدبي، ولكن كتابه يسرف في التجريد النظري من ناحية، وفي اقتراح نموذج فلسفي من ناحية، ثم يأتي الحديث عن الجماليات في صفات أخيرة منقطعة الصلة عن نموذج في "الخطيئة والتكفير" من ناحية ثالثة ، على أية حال اختار الغذامي بين شعر شحاتة كله ثلاثة قصائد ليست هي أجمل ما في شعره ..." [24]. وينفذ عبد الحميد إبراهيم إلى نقد الغذامي في تشريحه لعنوان "يا قلب مت ضمأ" فالمنهج التفكيكي قد أوقع الغذامي في أحكام جزئية حجبت عنه الرؤية الكلية من خلال وقوفه المطول على عنوان هذه القصيدة وحرفها الأول، وتلمس في حديثه شيئا من التأثر بالمذاهب الحديثة في النقد التشكيكي والتي تلغي فكرة العنوان.

فاللوحة أو التماثل لا يحتاجان إلى عنوان ، لأنهما وجود فكري، وتكوين وحضور، إن وضع عنوان في مثل هذه الحالة هو عملية عقلية، تلخص الحضور في بطاقة صغيرة ، قد تحمل كلمة أو كلمتين، ولكنها لا تستطيع أن تحيط بالتكوين كوجود، وهذا الحديث الطويل قد يصدق على الفنون التشكيلية، لكنه لن يصدق عن فن الشعر، والذي تمثل الكلمة مادته الخام، وهي مادة لها تاريخ طويل مع المعنى، فضلا عن أنها رمزية بحكم انتمائها إلى أسرة اللغة ، وقد ينطبق هذا الحديث على شاعر آخر غير شحاته، ولكنه لا ينطبق أبدا على شحاته، الذي لم يكن يهتم بوضع عناوين لقصائده ، وإن تعدد عناوين قصيدة "يا قلب مت ضمأ" لأكبر دليل على عدم اتخاذ هذه القصيدة نموذجا في الحديث عن دلالة العنوان في شعر شحاته، واستنتاج بعض الأحكام الفنية من عنوان قصائده، حيث لا يعتمد على أساس علمي[25] ، يضاف إلى الانتقادات، اغتراب الغذامي عن بيئته ونفسه ، فهو لن يصافح القصيدة مباشرة حتى تأنس إليه وتبوح له بأسرارها، بل حالت بينه وبينها مناهج مستبدة من أقوال الآخرين ، وهذا الاغتراب هو اشد أنواع الاغتراب، لأنه يمس وجدان الإنسان، وخير منهج في النقد ألا يكون لك منهج، ولن يكون هناك نقد أيضا إلا إذا تخلص الناقد من استبداد المناهج والتقى بالنص مباشرة، يستكشف دلالاته، ويسغي إلى إشاراته ويتوحد بحركته الفنية [26]، هذه هي مجمل الانتقادات التي حاول بموجبها عبد الحميد إبراهيم تقزيم تشريحية الغذامي في

سبره لأغوار النص ومكامنه الجمالية ، وهي انتقادات تنفي عن تحليلات الغذامي التشريحية طابعها الشمولي ، وفي الوقت نفسه تعيب عليه احتفاءه ببارت والمناهج النقدية، ومن دون تقديم بدائل نقدية أخرى . وقول عبد الحميد إبراهيم باللامنهج هو قول أقره الكثير من النقاد، ومن أولئك نذكر عبد الملك مرتاض تمثيلا لا حصرا [27]، بل إن معظم المقاربات النقدية المعاصرة تعمل على تضايف مبادئ مختلف الاتجاهات النقدية .

ويجب التأكيد مرة أخرى أن عبد الحميد إبراهيم قد عمل جاهدا على تقزيم الصورة النقدية التي ظهر فيها عبد الله محمد الغذامي رائدا للتشريح، وأول ملاحظة نقدية كانت تجاه القسم النظري من كتاب "الخطيئة والتكفير: وما يعتري ذلك من خلط في المفاهيم بين مختلف المدارس والاتجاهات" والقسم النظري يطغى على الكتاب، فمنذ الصفحات الأولى وحتى الصفحة 109 والمؤلف مشغول بتقديم البنيوية والسيميولوجية والتشريحية ، وغير ذلك من مدارس الألسنة ، وهو في هذا التقديم يخلط بين المدارس بعضها ببعض ومقولة إحداهما ينقلها إلى الأخرى، وقد يقتبس من كلام بارث عناصر السيميولوجيا وهو بصدد الحديث عن البنيوية (ص 28)، ويخرج القارئ في النهاية دون تعريف محدد للمدارس، والمؤلف يثني على الجميع، ولا يفرق بين واحد منها، وكل كاتب يصبح مدرسة تعتبر فتحا في مسيرة النقد العالمي (...) ويبدأ الحديث عن النموذج التطبيقي من ص 109، ولكنه يظل حتى ص 259 حديثا فلسفيا ومضمونيا وهو حديث يشغل الفصل الثاني والثالث من هذا الكتاب (...) إن الغذامي لم ينطلق في هذا الفصل (الفصل الثاني) من سمة فنية نصية ، ولكنه انطلق من محور عقلي وجداني تاريخي، يضرب إلى تراث ديني مقدس سماه الخطيئة والتكفير..." [28].

ويتابع عبد الحميد إبراهيم نقده لنموذج الخطيئة والتكفير لدى الغذامي، فيفصح عن مظاهر التكلف في مقاربة هذا النص ، هذا ناهيك عن إقحام الكثير من العوالم الخارجية في عالم نصي يتسم بالضيق يقول والقول للناقد "ولم أجد في كل ما قدمه الغذامي من قصائد، بل في كل قصائد حمزة شحاته إشارة صريحة إلى قصة الخطيئة والتكفير بعناصرها الستة، وكل ما وجدته هو تفسير دلالي لهذه العناصر، وهو تفسير مطاط ، راح المؤلف يتابعه في القصائد بلا كلل ولا ملل، والمؤلف يتكلف في شرحه للقصائد حتى تستجيب لهذه الرموز ، فالقارئ يقرأ الشعر ثم يقرأ شرحا مخالفا، إنها افكار مسبقة عن نموذج عقدي بدائي، يحاول المؤلف أن يعرضه على واقع القصيدة ،

نحن إذن إزاء دراسة نفسية تحليلية فلسفية، يكثر فيها المؤلف من الإشارة إلى يانج ومصطفى سويف وإلى تغييرات مثل جماعية اللغة، واللاشعور الجماعي وحالة النحن، وهي تعبيرات ثلاثة ترتد إلى قاموس التحليل النفسي..." [29].

وهنا يشير عبد الحميد إبراهيم إلى ملاحظة أساسية طالما وقع فيها الكثير من النقاد العرب الذين طبقوا هذه الاتجاهات النقدية ومن دون النظر فيما إذا كانت هذه الاتجاهات تتسق مع جماليات النصوص الشعرية، وهو تكلف وقع فيه الغذامي وقد بدأ ذلك واضحا في جعل جماليات الخطيئة تابعة لجماليات التشريح، أي أن نصوص الخطيئة أصبحت تابعة لآليات تلك المناهج، وقد ازداد الأمر خطورة في اتكاء الغذامي على جملة من المصطلحات والمفاهيم الفلسفية والنفسية التي لا تنتمي إلى الفصيلة المنهجية نفسها التي أراد امتثالها واعتناقها في مقاربته لتلك النصوص ، حيث أقحم أجساما غريبة ومجموعة في نص فيه من الروح العربية ما يجعله ينأى عن هذه الطيوف الأجنبية الحائرة.

وإذا كانت التفكيكية قد لقيت رواجا في الساحة النقدية العربية، عند كل من عبد الملك مرتاض ، وعبد الله محمد الغذامي ، فإننا نعترف بفضل التأسيس لهذا الاتجاه النقدي وفضل إرساءه في حركتنا النقدية المعاصرة. بيد أن هذه الإجراءات النقدية لقيت ضربات عنيفة من الكثير من النقاد، وقد تركزت هذه الهجمات على مشكلة التظافر بين التفكيك والسيمياء في دراسات عبد الملك مرتاض، حيث عمد إلى التركيب بين مختلف المناهج ، ونلحظ ذلك في كتابه " أ– ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، الذي ألفه سنة 1989، ونشره سنة 1995"، ونحن نرى أن هذا المزج بين السيميائية والتفكيك في مقاربة نقدية واحدة يمثل قصورا منهجيا يجليه وعي عبد الملك مرتاض بقصور هاذين الحقلين، واتكاء أحدهما على الآخر دليل على قصورهما.

إن هذا الجمع أو التضافر بين التفكيك والسيمياء، في دراسات عبد الملك مرتاض وغيره من النقاد العرب، قد أثار من حول التفكيكيين زوبعة من التساؤلات والتشكيك في عدم إمكانية الوصول إلى مختلف القيم الجمالية المختفية في عالم النص الأدبي، والواقع أن كثيرا من النقاد العرب قد رجعوا إلى التراث العربي القديم فاستلهموا منه بعض مبادئ وآليات هذا الاتجاه النقدي، ولكن تحت مظلة المصطلحات المغايرة لمصطلحات استراتيجية التفكيك، ومعنى ذلك أنهم حتى وإن امتثلوا مفاهيم هذا الإتجاه، فإن امتثالهم

يظل بصورة غير مباشرة، لا تخلو من التحاشي والتحيد والحذر، كونه يعتمد على الهدم والتدمير والنسف للبناء والأساسات اللغوية التي يبنى عليها النص الكتابي.

النتائج والتوصيات:

ما نستخلصه من هذه الورقة البحثية هو أن أزمة النقد التفكيكي ليست أزمة بحث عن آليات وطرائق وأساليب جديدة في تحصيل المعاني المختلفة، التي تركن في النص الأدبي، ولا هي مجرد رفض له، كونه يعتمد على نسف وتقويض التقاليد المعرفية والثقافية التي تجاوزها الفكر والعقل.

إن الأزمة في الحقيقة هي أزمة إجرائية بالأساس خصوصا وأن الوسيلة في ذلك هي المخزون اللغوي والثقافي الذي يفتقره دارسو الأدب في وقتنا الحاضر، فلم تعد الذاكرة تتمتع بقوة الحفظ والاستذكار في أي وقت، ولأن القراءة التفكيكية هي جولة في رحاب مدلولات الكلمة اللانهائية التي هي في الحقيقة إبحار في دواخل الذاكرة ومحتوياتها، فإن الدارس أو الناقد يفتقر إلى وسيلة الإبحار هذه ولذلك يقف عاجزا أمام أمواج النص العالية والكبيرة ويردّ عجزه ذلك إلى قصور في وسيلة الإبحار التي هي المنهج أو الاستراتيجية المتبعة في القراءة والتأويل. وبالتالي فإن النقد التفكيكي مثله مثل الإتجاهات النقدية السابقة له، وضعت أسسه ومقولاته وأفكاره بعيدا عن النص الكتابي الذي بات لا يطيق منهجا ولا يحتمل قراءة، ومهما بحث فيه الدارس و الباحث والقارئ يبقى النص الأدبي هكذا فاتحا أبوابه للمزيد من القراءات لأنه فضاء من المعاني والمدلولات الغائبة والمرجأة والتي لا حدود لها.

إن التفكيكية في أطرها النظرية لم تخرج عن أطر البنيوية في عمومها فقد حاولت مناقضة ما تقدمها من أسس منهجية إلا أنها بقيت تتقوقع داخل تلك الأطر ، ولم تتجاوزها، وأزمة التفكيكية تبدأ من مقولاتها في عزل المؤلف في مقابل التركيز على سلطة القارئ وما يتمخض عن ذلك من إهمال شبه كلي للنص الأدبي كأفق جمالي ومعرفي. وما ننتهي إليه هو أن التفكيكية التي قامت على أنقاض ما تقدمها من حقول منهجية أخرى (البنيوية والسيميائية والأسلوبية)، وبالرغم من نواياها الحسنة الداعية إلى تجديد الدم في روح البنيوية المرهقة ، ألفيناها هي الأخرى لم تتمكن بعد من الفكاك من الأطر الضيقة والانحياز الأعمى لـــ "الشكل" الذي وقعت فيه البنيوية، بل إن التفكيكية في بعض صورها لا تعدو أن تكون تنويعا عن النغم المركزي، المتمثل في البنيوية،

كما أنها لم تستطع ملامسة المحيط الجمالي والمعرفي والإنساني للظاهرة الأدبية، والعلة في كل ذلك تكمن في قصور المفهوم الذي كونته عن الظاهرة الأدبية ، إنه قصور تمظهر إجرائيا في الاستنجاد بأطر منهجية أخرى، وأما نظريا فقد تمظهر في تصريحات واعترافات النقاد التفكيكيين عربا وأجانب، بقصورها، كل ذلك أدى إلى حرمان التفكيكية من التوق إلى دوائر النقد والتحليل، بل إن إضفاء صفة الموصوف المنهجي عليها غدا وصمة عار في تاريخ النقد برمته.

الهوامش والاحالات:

(1)جاك دريدا : الكتابة والإختلاف ، ترجمو كاظم جهاد ، تقديم محمد علال سي ناصر ، دار تبقال للنشر والتوزيع ، المغرب ، ط1 ، 1988 ، ص 61.

(2)المرجع نفسه، ص 60.

(3)خوسيه ماريا بوثويلوا إيفانكوس : نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبي حامد ، دار غريب ، القاهرة ، ط1 ، د.ت ، ص 147.

(4)ينظر: عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، منشورات عالم المعرفة ، الكويت ، ط1 ، 1998 ، ص 291 – 292.

(5)المرجع نفسه ، ص 292.

(6)عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، ص 293.

(7)إبراهيم خليل: في النقد والنقد الألسني، مختارات أردنية ، دراسات نقدية ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2002 ، ص 104.

(8)ينظر: روجيه غارودي: البنيوية، فلسفة موت الإنسان، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة و النشر، سوريا ، ط3 ، 1983 ، ص 5، 6.

(9)ينظر: ليونارد جاكسون : بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، دراسة فكرية، ترجمة ثائر ذيب ، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا ، د.ط ، 2001 ، ص 252.

(10)ينظر: كريستوفر نورس : التفكيكية، النظرية والتطبيق، ترجمة رعد عبد الجليل جواد ، دار الحوار للنشر و التوزيع ، سوريا ، ط1 ، 1992 ، ص 112.

(11)المرجع نفسه ، ص 131، 132.

(12)عبد العزيز بن عرفة: التفكيك والإختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، الكويت ، شباط ، 1988 ، ص 74.

[13]المرجع نفسه، ص 74.

[14]المرجع نفسه ، ص 77.

[15]ينظر: كريستوفر نورس، التفكيكية، النظرية والتطبيق، ص 136.

[16]ينظر: ميجان الرويلي: قضايا نقدية ما بعد البنيوية، النادي الأدبي، الرياض، ط1، 1992، ص 157.

[17]شجاع مسلم العاني: المغايرة والإختلاف، دراسة في التفكيك، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة ، السعودية ، مج 10 ، ج 40 ، جوان 2001 ، ص .

[18]بسام قطوس: استراتيجيات القراءة، التأصيل والإجراء النقدي، مؤسسة حمادة و دار الكندي الأربد ، ط1 ، 1998 ، ص32.

[19]عبد العزيز بن عرفة (جاك دريدا) ، التفكيك والإختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص74.

[20]المرجع نفسه، ص 77.

[21]عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، ص 397.

[22]المرجع نفسه، ص 309.

[23]عبد الحميد إبراهيم، نقاد الحداثة وموت القارئ، مطبوعات نادي القسيم الأدبي، مكتبة الملك فهد الوطنية ، دمشق ، ط1 ، 1996 ، ص 57.

[24]المرجع نفسه ، ص 92.

[25]المرجع نفسه ، ص 94، 95.

[26]المرجع نفسه ، ص 101.

[27]ينظر: عبد الملك مرتاض : النص الأدبي من اين؟ وإلى أين؟ ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983، ص 55.

[28]عبد الحميد إبراهيم: نقاد الحداثة وموت القارئ، ص 51، 52.

[29]المرجع نفسه، ص53.